اجتهاد السَّلف في طلب العلم

. ولقد بلغ من حرصهم على الطَّلب الشيء العجيب ، حتى هجروا الأوطان وفارقوا الأهل والخلان في طَلِب العلم (قَالَ ابن عباس : ذَلَلْتُ طَالبًا فعززت مَطْلُوبًا .(١

وقال أيضًا : مَا حَدَّثَنِي أَحَدٌ قَط حَدِيثًا فاستفهمته ، فلقد كنت آتي باب أُبي بن كعب وهو نائم ، فأقيل على (بابه ، ولو علم بمكاني لأحب أن يُوقَظَ لي ؛ لمكاني من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني أكره أن أمله .(٢

قَالَ يُونُسُ بْنُ يزيد : قَالَ لي ابن شهاب : يا يونس ! لا تكابر العِلْم ، فَإِنَّ العلم أودية ، فأيها أخذت فيه قَطَعَ بِكَ قَبْلَ أَنْ تبلغه ، ولكن خُذْهُ مَعَ الأيامِ واللَّيالي ، ولا تأخذ العِلْمَ جُمْلَة ؛ فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَة ذهب عنه جُمْلَة (، ولَكِنَّ الشَّيءَ بَعْدَ الشَّيءِ مَعَ اللَّيالِي وَالأَيَامِ .(٣

وقام رجل إلى ابن المبارك فقال : يا أبا عبد الرحمن في أَيّ شيء أجعل فَضْلَ يومي في تعلُّمِ القرآن ، أو في طلب العلم ، فقال : هل تقرأ من القرآن ما تُقِيمُ به صلاتك ، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَاجْعَلْهُ فِي طَلَبِ العِلْمِ الَّذي يُعْرَفُ (بِهِ القُرْآن.(٤

وعن فَرْقد إمام مسجد البَصْرة قَالَ : دَخَلُوا عَلَى سُفْيانَ الثَّوري في مَرَضِهِ الَّذِي مَات فِيه ؛ فَحدَّثه رَجُلٌ بِحَدِيثٍ فَأَعْجَبَهُ ؛ فَضَرَبَ يَدَهُ إِلى تَحْتَ فِرَاشِهِ فَأَخْرَجَ أَلْوَاحًا لَهُ فَكَتَبَ ذَلِكَ الحدِيث . فقالوا له : على هذه (الحال منك ؟ فقال : إِنَّهُ حَسَنٌ ، فَقَد سَمِعْتُ حَسنًا ، وَإِنْ مِتُّ فَقَدْ كَتَبْتُ حَسنًا .(٥

ذكر القرشي في (٦) ترجمة إبراهيم بن الجراح التميمي مولاهم -تلميذ أبي يوسف وآخر من روى عنه- قَالَ: أتيته أَعُوده ، فوجدته مغمًى عليه ، فلمّا أفاق قَالَ لي: يا إبراهيم ! أيُّهما أَفْضَلُ في رَمْي الْجِمَارِ ، أَنْ يَرْمِيَهَا الرَّجُلُ رَاجِلًا أو رَاكبًا؟

.!فقلت : راكبًا. فقال: أخطأتَ

.!قلتُ : ماشيًا. قَالَ: أخطأتَ

.-قلت : قُلْ فِيها -يَرْضى الله عنك

قَالَ : أما ما يوقف عنده للدُّعاء ، فالأفضل أن يرميه راجلًا ، وأما ما كان لا يوقف عنده ، فالأفضل أن يرميه .(راكبًا(٧

قَالَ أبو حاتم : قَالَ لي أبو زرعة : ما رأيتُ أَحْرَصَ على طَلَبِ الحديث منك يا أبا حاتم ! فقلت : إن عبد الرحمن - يعني ولده - لحريص ، فقال : مَنْ أشبه أباه فما ظَلَمَ ، قَالَ الرَّقام - أحمد بن علي - سألتُ عبد الرحمن عن اتفاق كثرة السَّماع له وسؤالاته من أبيه ، فقال : ربما كان يأكل وأقرأ عليه ، ويمشي وأقرأ عليه ، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه ، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه ، قَالَ عَلِي بن إبراهيم : وبلغني أنه كان يَسْأَلُ أباه أبا حاتم في مرضه الذي توفي فيه عن أشياءَ مِنْ عِلْمِ الحديث وغيره ؛ إلى وقت ذهاب لسانه ، فكان يشير إليه (بطرفه : نَعَمْ وَ لَا .(٨

وذكر القاضي عياضٌ في (٩) في ترجمة مسرَّة بن مسلم الحَضْرمي ت (٣٧٣) -وكان من أهل العلم والزهد التام- أنه لما احْتُضِرَ ابتدأ القرآن ، فانتهى في \"سورة طه\" إلى قوله تَعَالَى: (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) [طه/ ٨٤]، .ففاضت نفسه

قَالَ المعافى النَّهْرَواني (١٠): وحكى لي بعض بني الفرات ، عن رجلٍ منهم : أنه كان بحضرة أبي جعفر الطَّبري - رحمه الله- قبل موته ، وتوفي بعد ساعة أو أقلّ منها ، فذُكِرَ له هذا الدعاء(١١) ، عن جعفر بن محمد -عليهما

السلام- فاستدعى محبرة وصحيفةً فكتبها ، فقيل له : أفي هذه الحال ؟! فقال: يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ لَا يَدَع اقْتِبَاسَ العِلمِ حَتّى يَمُوت .اهـ.

وهذا البُخَارِيُّ ، مَاتَ أَبُوه وَهُو صَغِيرٌ فَنَشَأَ فِي حجر أمه ، فألهمه الله حفظ الحديث وهو في المكتب ، وقرأ الكتب المشهورة وهو ابن ست عشر سنة ؛ حتى قيل إنه كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سردًا ، وحَجَّ وعمره ثماني عشرة سنة ، فأقام بمكة يطلب بها الحديث ؛ ثم رحل بعد ذلك إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان التي أمكنته الرِّحلة إليها ، وكتب عن أكثر من ألف شيخ ، وروى عنه خلائق وأمم ، وقد روى الخطيب البغدادي عن الفربري أنه قَالَ : سمع الصَّحِيح من البخاري معي نحو من سبعين ألفًا ؛ لم يبق منهم أحد غيري (.١٢)

وعن عمر بن حفص الأشقر قَالَ : كنا مع البخاري بالبَصرة نكتب ، ففقدناه أيامًا ، ثم وجدناه في بيتٍ وهو عُرْيان وقد نفد ما عنده ، فجمعنا له الدَّراهم حتى اشترينا له ثوبًا وكسوناه .(١٣)

. بل ربما تبسط لهم الدنيا بسطا فيسخروها ويطوعوها في طاعة الله سبحانه وتعالى

فهذا يحي بن معين ، كان والده على خراج الرَّي فمات ، فخلف ليحيى ابنه ألف ألف درهم ؛ فانفقه كله على الحديث ، حتى لم يبق له نعل يلبسه .(١٤)

. وإذا عجزوا عن إيجاد المال لم يتعنوا في طلب العلم بل طوعوا أشياء مما لا يعبأ بها النَّاس في الطَّلب

فهذا الشّافِعي رحمه الله لم يكن له مَالٌ ، قَالَ : فَكُنْتُ أَطْلُبُ العِلْمَ فِي الحدَاثَةِ ، أذهب إلى الدِّيوان استوهب الظُّهور - أي ظهر الورق المكتوب فيه - أكتب فيها .(١٥)

قَالَ الحاكم : وسألت محمد بن الفضل بن محمد عن جده - ابن خزيمة صَاحِبُ الصَّحِيح - فذكر : أنه لا يدخر شيئًا جهده ؛ بل ينفقه على أهل العلم ، وكان لا يعرف سَنْجَةَ الوزن ، ولا يميز بين العشرة والعشرين ، ربما أخذنا منه العشرة ؛ فيتوهم أنها خمسة .(١٦)

. وكانوا يُكيفون أوضاعهم وأمورهم ؛ حتى ثيابهم لطلب العلم

قَالَ ابْنُ دَاسَه : كان لأبي داود كُمٌّ وَاسِعٌ وَكُمٌّ ضَيِّقٌ ، فقيل له في ذلك فقال : الواسِعُ لِلْكُتْبِ ، والآخَرُ لا يُحْتَاجُ إِلَيه .(١٧)

ولو نظر النَّاظر إلى حالهم في طلب العلم ، وما بذلوه من غالٍ ونفيس ، وما وقع لهم من صِعَابٍ لوجد العَجَبَ العُجَاب .

فهذا ابن خِراش : عبد الرحمن بن يوسف بن خِراش الحافظ يقول : شربت بولي في هذا الشأن - يعني الحديث - خَمْسَ مَرّات ، قلت - أي الخطيب : أَحْسَبُه فَعَلَ ذَلِكَ فِي السَّفَرِ اضْطِرارًا ؛ عند عدم الماء - والله أعلم .(١٨)

قَالَ الوخشي يوما : سمعت ، ورحلت ، وقاسيت المشاق ، والذُّل ، ورجعت إلى وخشٍ وما عرف أحد قدري ، ولا فهم ما حصلته ، فقلت : أموت ولا يَنْتَشِرُ ذِكْرِي ، ولا يَتَرَحَّمُ أَحَدٌ عَلَيّ ، فسَهَّل الله ووفق نظام الملك ؛ حتى بني هذه المدرسة فيها حتى أُحَدِّث ، لقد كنت بعسقلان أسمع من ابن مصحِّح وغيره ، فضاقت عَلَيَّ النَّفقة ، وبقيت أيامًا بلا أكل ، فأخذت لأكتب فعجزت ، فذهبت إلى دُكّان خباز وقعدت بقربه لأشم رائحة الخبز ، وأتقوى بها ثم فتح الله تَعَالَى على.(١٩)

. وقد بلغوا من الحرص درجةً عجيبةً حَتَّى أَنَّ أَحَدَهُم يَنْكَسِرُ قَلَمُهُ ؛ فيشتري قلمًا بدينار

فقد انكسر قلم محمد بن سلام البيكندي في مجلس شيخٍ له ، فأمر أن ينادى قلم بدينار ، فطارت إليه الأقلام .(٢٠)

قَالَ الليث بن سعد : وضع الطست بين يدي ابن شهاب ، فتذكر حديثًا فلم تزل يده في الطست حتى طلع الفجر ؛ حتى صححه.(٢١)

قَالَ الزُّهْرِي : خَدَمْتُ عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، حتى أن كان خادمه ليخرج فيقول : مَنْ بالباب ؟ فتقول

(الجارية : غُلامك الأعيمش - فتظن أني غلامه - وإن كنت لأخدمه حتى لأستقي له وضوءه .(٢٢
وكان ابن طاهر أحد الحفاظ ، حسن الاعتقاد ، جميل الطَّريقة ، صدوقًا عالِمًا بالصَّحيح والسَّقيم ، كثير التصانيف ، لازمًا للأثر يقول : بُلت الدَّم في طلب الحديث مرتين ، مرة ببغداد ، ومرة بمكة ، كنت أمشي حافيًا في الحرِّ ؛ فلحقني ذلك ، وما ركبت دابة قط في طلب الحديث ، وكنت أحمل كُتُبي على ظهري ، وما سألت في حال الطَّلب أحدًا ، كنت أعيش على ما يأتي . وقيل : كان يمشى دائمًا في اليوم والليلة عشرين فرسخًا ، وكان (قادرًا على ذلك .(٢٣
قَالَ أبو طَاهِر السِّلفي : وقد كُتِبَ عَنِّي بأصبهان أول سنة اثنتين وتسعين وأربع مائة ، وأنا ابن سبع عشرة سنة ، . أو أكثر أو أقل بقليل ، وما في وجهي شعرة ، كالبخاري رحمه الله - يعني لما كَتَبُوا عنه
: قَالَ الشَّيخ علم الدين السَّخاوي : سمعت يومًا أبا طاهر السِّلفي ينشد لنفسه ما قاله قديمًا

أَنَا من أَهْلِ الْحَدِيثِ
وَهُمْ خَيْرُ فِئة

جُزْتُ تِسْعِينَ وَأَرْ
جُو أَنْ أَجُوزَنَّ الْمِائَة

(فقيل له : قد حقَّق الله رجاءك ، فعلمت أنه قد جاز المائة ، وذلك في سنة إثنتين وسبعين وخمس مائة .(٢٤
(وعن ابن نَاصِر قَالَ : كان السِّلفي ببغداد كأنه شعلةُ نارٍ في التَّحصيل .(٢٥
ففي ترجمة أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي ت (٥١٣) (٢٦): -رحمه الله- أنه قَالَ: إني لأجدُ من حِرْصي على العلم . ، وأنا في عَشْرِ الثمانين (٢٧)أشدّ مما كنت أجده وأنا ابنُ عِشرين سنة
قَالَ ابن عَسَاكِر في ترجمة الفقيه سُلَيْم بن أيوب الرّازي(٢٨) : حُدِّثتُ عنه أنه كان يحاسِب نفسَه على الأنفاس ، لا يدع وقتًا يمضي عليه بغير فائدة ، إمّا ينسخ أو يُدَرِّس أو يقرأ... ولقد حدثني عنه شيخُنا أبو الفراج . الإسفراييني أنه نَزَلَ يومًا إلى داره ورجع ، فقال : قد قرأتُ جُزْءًا في طَرِيقي
.وقال: إنه كان يُحرِّك شَفَتَيه إلى أن يَقُطَّ القَلَم
وعن أبي هلالٍ العَسْكري(٢٩) قَالَ: وحُكِيَ عن ثعلب(٣٠) أنه كان لا يُفارقه كتابٌ يَدْرُسه ، فإذا دعاه رجلٌ إلى . دعوةٍ ، شَرَطَ عليه أن يوسعَ له مِقدارَ مِسْوَرَةٍ يضعُ فيها كتابًا ويقرأ
ولقد وصل بهم الحال إلى أن يكونوا عَجَائِب الزَّمان ، وتندر الخلان ، حتى يُقرن أحدهم بعجائب الدنيا التي لا . تبلها الدُّهُور ، ولا تؤثر فيها السُّنُون
قَالَ يحيى بن معين : رأيت بمصر ثلاث عَجِائب : النيل ، والأهرام ، وسعيد بن عُفير(٣١)، قَالَ الذهبي قلت : (حسبك أن يحيى إمام المحدثين انبهر لابن عفير .(٣٢
قَالَ العَبّاسُ التّرفقي : خرج علينا سفيان بن عيينة يومًا ، فَنَظَرَ الى أصْحَابِ الحديث ، فقال : أَفِيكُمْ أحدٌ مِنْ

أَهْلِ مصر ؟ فقالوا : نعم ، فقال : ما فَعَلَ فيكم اللَّيث بن سعد ؟ فقالوا : تُوفِّي ، فقال : أَفِيكُمْ أحدٌ مِنْ أَهْلِ الرَّملة ؟ فقالوا : نعم ، فقال : ما فعل ضَمْرة بن رَبِيعة الرَّملي ؟ قالوا : تُوفِّي ، قَالَ : أَفِيكُمْ أحدٌ مِنْ أَهْلِ حِمْص ؟ قالوا : نعم ، قَالَ : ما فعل بقية بن الوليد ؟ قالوا : تُوفِّي ، قَالَ : أَفِيكُمْ أحدٌ مِنْ أَهْلِ دِمَشْق ؟ قالوا : نعم ، قَالَ : ما فعل الوليد بن مُسْلِم ؟ قالوا : تُوفِّي ، فقال : أَفِيكُمْ أحدٌ مِنْ أَهْلِ قَيْسَارِية ؟ قالوا : نعم ، فقال :: ما فعل محمد بن يوسف الفِرْيابي ؟ قالوا : تُوفِّي ، قَالَ : فبكى طويلا ، ثم أنشد يقول

خَلَتِ الدِّيَارُ فَسُدْتُ غَيْرَ مَسُودِ
وَمِنْ الشَّقَاءِ تَفَرُّدِي بِالسُّودَدِ

.(33)

قَالَ الإمام ابن القيم (٣٤): وحدَّثني شيخنا -يعني ابنَ تيمية- قَالَ: ابتدأني مرضٌ ، فقال لي الطَّبيب: إن مُطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض ، فقلت له : لا أصبر على ذلك ، وأنا أحاكمك إلى علمك ، أليست النَّفس إذا فرحت وسُرَّت وقَوِيت الطبيعةُ فدفعت المرضَ ؟ فقال : بلى ، فقلت له: فإن نَفْسِي تُسرُّ بالعلم .فتقوى به الطبيعةُ فأجدُ راحةً ، فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا... اهـ

وذكر السَّخاوي (٣٥) عن القاضي شمس الدين بن الديري يقول : سمعتُ الشّيخَ علاء الدين البِسْطامي -ببيت المقدس- يقول وقد سأله رجل : هل رأيت الشيخ تقيَّ الدين ابن تيميَّة ؟ فقال: نعم . قلتُ : كيف كانت صِفَتُه ؟ : فقال

.هل رأيتَ قُبَّةَ الصَّخرة ؟ قلت: نعم . قَالَ: كان كقُبَّةِ الصَّخرة مُلأت كتبًا لها لسانٌ ينطق!! اهـ

. بل الأعج والأدهى الجد - أي جد شيخ الإسلام بن تيمية

قَالَ ابن القيم -رحمه الله- (٣٦) -وهو يتكلم عن عِشْق العلم-: وحدثني أخو شيخنا - يعني أحمد ابن تيمية - عبدُ الرحمن ابن تيمية ، عن أبيه (عبد الحليم) قَالَ: كان الجَدُّ (أبو البركات) إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأْ في .هذا الكتاب وارْفَعْ صَوْتَك حتى أسمعُ . اهـ

وقف بعضُ المتعلِّمين ببابِ عَالِمٍ ثُمَّ نَادَى : تَصَدَّقُوا عَلَيْنا بما لا يُتْعِبُ ضِرْسًا ولا يُسْقِمُ نَفْسًا ، فأخرج له طعامًا ونفقة . فقال : فاقتي إلى كَلَامِكم أَشَدُّ مِنْ فَاقَتي إلى طَعَامِكم ، إِنِّي طَالِبُ هُدَى لا سَائِلُ نَدَى . فأذن له العَالِم وأفاده من كُلِّ ما سَأَلَ عَنْهُ فخرج جذلًا فرحًا ، وهو يقول : عِلْمٌ أَوْضَحَ لَبْسًا ، خَيْرٌ مِنْ مَالٍ أَغْنَى نَفْسًا .(٣٧)

:(قَالَ أبو الوليد الباجي (٣٨

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينًا

بِأَنَّ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاعَهْ

فَلِمَ لَا أَكُونُ ضَنِينًا بِها
وأَجْعَلُها فِي صَلَاحٍ وَطَاعَهْ

]من كتاب \"العبادة واجتهاد السلف فيها\" للشيخ[

[HR]

(1)جامع بيان العلم (٤٧٤/١(

(2)طبقات ابن سعد (٣٧١/٢(

(3)جامع بيان العلم (٤٣١/١(

(4)تاريخ بغداد (١٦٥/١٠(

(5)ابو نعيم \"الحلية\" (٦٤/٧(

(6)الجواهر المُضِيَّة (١/ ٧٦(

(7)انظر\"المجموع\": (٨/ ١٦٨)، و\"أضواء البيان\": (٥/ ٣٠٨) وقال: وأظهر الأقوال في المسألة هو الاقتداء بالنبيr ، وهو قد رمى جمرة العقبة راكبًا، ورمى أيام التشريق ماشيًا ذهابًا وإيابًا والله تَعَالَى أعلم اهـ

(8)تهذيب الكمال (٣٨٧/٢٤(

(9)المدارك (٦/ ٢٧١(

(10)الجليس الصالح (٣/ ٢٢٢(

(11)وهو قوله: ((يا سابق الفوت، ويا سامع الصوت، ويا كاسي العظام لحمًا بعد الموت...)) ثم يدعو بمسألته.

(12)البداية والنهاية (٢٥/١١(

(13)سير أعلام النبلاء (٤٤٨/١٢(

(14)سير أعلام النبلاء (٧٧/١١(

(15)تهذيب الكمال (٣٦١/٢٤(

(16)سير أعلام النبلاء (٣٧٠/١٤(

(17)تذكرة الحفاظ (٥٩٢/٢(

(18)تاريخ بغداد (٢٨٠/١٠(

(19)تذكرة الحفاظ (١١٧٣/٣(

(20)سير أعلام النبلاء (٦٢٩/١٠(

(21)أبو نعيم الحلية (٣٦١/٣(

(22)أبو نعيم الحلية (٣٦٢/٣(

(23)تذكرة الحفاظ (١٢٤٣/٤(

(24)سير أعلام النبلاء (٧/٢١(

(25)تذكرة الحفاظ (١٣٠١/٤(

(26)الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ١٤٦(

(27)أي: العشر التي فيها الثمانين (من ٧١ إلى ٧٩.(

(28)تبيين كذب المفتري (٢٦٣(

(29)كتاب \"الحث على طلب العلم\" (٧٧(

(30)أبو العباس اللغوي المعروف بثَعْلَب ت (٢٩١(

(31)قَالَ الذهبي : هو الإمام الحافظ ، العلامة الإخباري الثقة ، أبو عثمان المصري

(32)سير أعلام النبلاء (٥٨٤/١٠(

(33)أبو نعيم \"الحلية\" (٢٨٩/٧(

(34)روضة المحبِّين (٧٠(

(35)الجواهر والدرر(١/ ١١٧(

(36)روضة المحبين (٧٠(

(37)أدب الدنيا والدين (٤٣(

(38)ترتيب المدارك: (١٢٥/٨(